عن معنى الحرية!

كانت كلمة "الحرية"، وما زالت، داخل الصرح الثقافي العراقي والعربي، حبيسةَ الموقف الايديولوجي: الوطني، القومي، الاسلامي، والماركسي. القصيدة تعانق حريتها وفق اشتراطات لا شك في نبالتها، ولكنها اشتراطات أولاً، ووليدة صياغات ذهنية. الايديولوجيا والعقيدة رفعت مفهوم الحرية الى سماواتها القدسية، وبذلك اطمأنت من واقع انفصالها الكلي عن الحياة. لم يكن الانسان حراً، وما زال، في العراق والعالم العربي. حريته في الحياة والأفكار تكاد تكون ملغاة، ومحترقة الجذور. الوعي بالحرية ظل احتكاراً في يهو الثقافة الإيهامية. بعد التحرير فاضت على العراقيين عثرات الطريق باتجاه حريتهم. ولعل واحدة من أكثرهن وطأة هي واقع الحرية ذاته. كيف يدركها المواطن ويتعامل معها بمقدار سعتها، وقد ألف عبودية السلطة، وعبودية العقيدة المقدسة طوال حياته، وحياة أبيه وأبنائه؟ نعتقد جميعاً أن المثقف هو الوسيط الوحيد الممكن بين هذا المواطن، وبين وعيه لحريته الجديدة. هل ترى يملك المثقف أن يحقق انجازاً شاقاً كهذا، اذا لم يكن هو ذاته ممسكاً بالقياد الطليق البهيج لمعنى حريته، فالتاً من أسر المعتقد؟ أم هو يسعى من جديد لأسر الحرية الخارجية المتاحة لصالح مفهومه العقائدي، البعيد عن الحياة والأرض، ويقضي العمر المتبقي في تعميق خندقه في وجه الخنادق الأخرى؟

الأحزاب الساعية الى الإسهام بتشكيل السلطة التمثيلي، لن تتورع عن الانتفاع من موروثها الايماني لمحاصرة معنى الحرية. ولكن هذا الواقع المعتم يقابله واقع منير أعلى منه، وأكثر تأثيراً، ولا يقل عنه ملموسة: هو واقع النظام الديمقراطي التمثيلي. وفي احتدام الحوار بين الأطراف المتنافسة تحت مظلته، المتكافئ مع حوار السوق الحر، والصحافة الحرة، يكمن معنى الحرية اليكوري الجديد. معنى الحرية المقرون بزوال الخوف.

فيما يلي ست مداخلات حول معنى الحرية الذي ورد في الكلمة أعلاه.

فوزي كريم

العبودية الفائضة، الحرية الفائضة

د. حسن ناظم

الحرية قدرة على الاختيار في المقام الأول. إنها، قبل أن تكون امتثالاً لأية قوانين أو انفلاتاً منها، نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى الآخرين، إلى سلوكه، واستعداده لاختبار إرادته لحرة في تحقيق أفعال نافعة في لحياة. وإنساننا العراقي الذي رزح تحت حكم دكتاتوري وحشي لسنوات طوال، يواجه اليوم حرية فائضة، يتخبط معها وبها، ذلك أنه ينقله فكر الثقافة للستبدة، والتاريخ للستبد، ونماذج الطغاة من كل لون وشكل. فلا شك إذن في أننا فقدنا الحاسة التي تشعرنا بطعم الحرية لا سيما حين "تهجم" لحرية على الناس هجوم الدكتاتورية عليهم.

فالحرية لا تعني فقط غياب سلطة "الاستبداد وطبائعه"، إنها تنطوي على متضمنات عديدة يقف في مقدمتها خلق وعي بالحرية قبل هجمتها، وتهيئة مناخ سياسي يقوم على الديمقراطية من أجل دعم الحرية، ولا مكان لديمقراطية حقيقية، أو جديرة بتسميتها، من دون تحقيق فردية الإنسان، إحساسه بذاته كذات مستقلة، وبشخصيته كشخصية لها كيان خاص. ولعل من أبرز مهمات المثقف العراقي خلق هذا الوعي في الإنسان العراقي. فالفرد العراقي ما زال يحيا بلا فردية، يحيا فرداً في عشيرة، أو عضواً في حزب، أو ابناً لطائفة أو عرق. وحين يكون الإنسان فرداً بلا فردية، وعضواً تحكمه الدوغما، وابناً مأخوذاً بالمعتقد، لا يمكن أن تستقيم ديمقراطية حقيقية.

لكن للمسألة جانباً آخر خطيراً. فالمثقف العراقي هو نفسه بحاجة إلى مثل هذا الوعي لجديد. فالمثقفون أنفسهم منقسمون على طبائع شديدة التناقض. فمنهم من يتمتع بتاريخ ثقيل في دعم دكتاتورية صدام والبعث، ومنهم للنتمون إلى هذا الحزب أو ذاك من أحزاب السلطة الآن، ومنهم للستقلون الذين يختلفون في وجهات نظرهم اختلافاً واضحاً أيضاً. ومن هنا تتعقد للسألة، ويصبح مشروع إعادة بناء الإنسان والثقافة لا يقل أهمية عن إعادة البنى التحتية. غير أن عراقاً ليس فيه صدام والبعث عراق حر ضرورة مهما كان لون حريته، ومهما كان لون استعمال هذه لحرية. فأنا الذي أعيش في بلد ديمقراطي غربي، أشعر الآن من مكاني بحرية أكبر من تلك التي أتعم بها قبلاً، ذلك أن فائض تحرر من كوابيس الماضي للوصول بالحاضر والنطلق نحو للستقبل للظلم في أيام صدام. والآن، صار من للمكن أن نضخ معاني متعددة ومختلفة لكلمة "الحرية". إبان حقبة البعث الكارثية، ملأت أذاننا من ترديد كلمة "الحرية" كهدف من أهداف حزب البعث، لقد مجت الأسماع هذه الكلمة، لأنها بقيت كلمة فارغة من أي معنى. ففي الوقت الذي بلغ فيه الاستبداد حداً يفوق التصور، ظهرت مفردة "الحرية" لا لتعبر عن معناها الحق، بل لتسم عصر أشوه الكلمات وعالم معانيها، ناهيك عن الواقع والحياة إجمالاً.

ثمة مخاطر مفزعة تلحق التحرر من حكم الطغيان وبدء حياة جديدة تنفتح على أفق الديمقراطية. ومخاض الديمقراطية لن يكون سهلاً البتة ما دامت ديمقراطية مجتلبة، بل حتى الديمقراطيات العتيدة لم تتحقق إلا بعد مخاطر مفزعة. وعقدة العقد في هذا الضمار هي الوعي. إننا اليوم في أشد لحاجة إلى لحوار، إلى تقبل الاختلاف في الرأي، في الدين، في اللون، في كل شيء. يجب أن تسود سياسة التسامح والسماح للآخر أن يعبر عن رأيه، لأن التعبير عن الرأي دليل على الفردية والاستقلالية والشخصية، وهي عوامل مهمة لتأسيس الديمقراطية. يجب إعادة النظر في الأشياء النصهرة لينماز كل شيء فيها، وتظهر خصائصها الحقيقية بعد أن ذوبت بالقسر والقهر، بالحديد والنار. هذه النزعة في التفكير هي التي تتسق مع دمقرطة الحياة بالعراق.

لقد حاول صدام بكل ما أوتي من إجرام أن يحول الكل للختلف إلى واحد متجانس، إلى شبيهه، واحد يشبهه، يتماهى معه، ليقوم مقامه في كل مكان، لكنه بجهل وحمق عز نظيرهما لم يتبين مسار التاريخ الذي يغادر عالم التماثل إلى عالم الاختلاف، ويهجر الواحد إلى التعدد، ويمج الثابت وينشد التغير.

الحرية وأشباح الماضي

صالح كاظم

1

تمتلك الحرية في المجتمعات الحديثة ملامح واضحة أصبحت تشكل ظاهرة يومية في حياة الواطنين، لا يجري نقاش حولها إلا في حالات استثنائية وبالذات حين تقوم الحكومات للنتخبة لهذه البلدان بإجراءات أمنية تمس بهذا الشكل أو ذاك حرية الفرد للعلوماتية وحرية الرأي وحرمة السكن. وكل هذه أمور غير واردة لدى الأنظمة الشمولية القمعية الدكتاتورية بما فيها البلدان التي كانت تسمى بـ"النظومة الإشتراكية"، وأغلبية بلدان العالم الثالث، والبلدان العربية والإسلامية. ولهذا كان أغلب هذه البلدان يرفض تطبيق ما ورد في "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان" الصادر عن الأمم للتحدة رغم توقيعه عليه. وكان هذا الرفض ومازال يبرر بحجتين أساسيتين، أولهما وهي حجة "اليسار" التي شاعت في البلدان "الإشتراكية" ومحتواها: "لا يمكن الفصل بين حقوق الإنسان السياسية و الإقتصادية، والأخيرة هي مصدر هذه الحقوق. أما ما يحصل في الغرب فهو تشويه لهذه الحقوق حيث تختزل على الحقوق الإجتماعية و السياسية، للحجوبة عن قطاع واسع من الجماهير". أما الحجة الثانية فهي تلك التي مازالت تتردد في الأوساط العربية والإسلامية ويمكن إختزالها بما يلي: "حقوق الإنسان هي بدعة غربية لا تتلاءم مع تقاليدنا الإجتماعية و الدينية".

في ظل هذه للوقف تحول مفهوم الحرية - وينطبق هذا بشكل خاص على البلدان العربية - الى مفهوم ضبابي جماعي، بعيد عن الذات الإنسانية ومتطلباتها الواقعية.

2

في عراق الستينات كنا نواجه القمع الخارجي بأحلام عن الحرية نجدها في بعض الكتب للترجمة أو في النصوص الأصلية للكتوبة باللغة الإنجليزية أو الفرنسية. وكنا على الأغلب نسرى للواقع للرير، وللحلم في الوقت نفسه. الواقع: حضور دائم للعسكري الذي يمكن أن يدوس بجزمته في أي وقت، وفي أي مكان، على عنق أي منا، في عالم تتحكم به السيوف للسلطة على رقاب العباد. الحلم: قارة بعيدة، لا رقيب فيها على الأفكار والأفعال، وخالية من هواجس الخوف، التي كانت ترافق كل خطواتنا، منذ مغادرة البيت حتى العودة إليه ليلا. ونادراما كان الواحد منا يجرؤ على مواصلة هذا الحلم وإستشفاف كل جوانبه للشرقة، لحد للطالبة بما نسميه اليوم بـ "للجتمع للدني" للؤسس على مبادئ الديمقراطية وحرية الفرد، وذلك بسبب ذلك الرقيب الداخلي الذي يرافقنا طيلة مراحل العمر. لهذا فإن العدد الأكبر منا كان أكثر تقبلا للافكار الشمولية التي تمثلت في أغلب الأحزاب السياسية، للنتشرة حينها، والتي كانت تروج بوضوح للمركزية وعبادة الفرد - جمال عبد الناصر، عبد الكريم قاسم، ميشيل عفلق، ستالين وهتلر -.

أما مفهوم "الحرية" فقد بقي لدى هذه الأحزاب مفهوما قاصرا ينتهي عند حد "التحرر من الإستعمار" وهذه الظاهرة لم تقتصر على للثقفين العراقيين فحسب، بل شملت كذلك للثقفين العرب، الذين مازال بعضهم ولحد يومنا هذا يتحسر على نهاية النظام النموي في العراق، ويشير بإصبع الإدانة للشعب العراقي، الذي لم يقف معارضا لتحريره على أيدي قوات التحالف، بل تعاون معها على إسقاط تماثيل الدكتاتور.

وفي الوقت الذي كان يحتدم فيه النقاش بيننا حول "الحرية" و "للسؤولية" بمفهومها الوجودي، كان هناك من يراقبنا وقد ارتسمت على شفتيه إبتسامة ساخرة وهو يعد نفسه لممارسة دور الجلاد الثقافي لاحقا.

في سنة 1968 أثناء أحداث براغ كان للوقف السائد بين للثقفين العراقيين والعرب مماثلا لموقف الإتحاد السوفيتي والبلدان "الإشتراكية" الأخرى، في رفض مطالب الشعب التشيكي لمزيد من الحرية وإجراء بعض الإصلاحات على النظام القائم. كنت في حينها عضوا في الحزب الشيوعي العراقي/ القيادة للركزية. و لا أنكر بأني وقفت حينها الى جانب سحق الحركة الإصلاحية في تشيكوسلوفاكيا من قبل القوات السوفيتية. هذه واحدة من خطايا الماضي للؤلمة التي تجاوزتها، بعد أن تعرفت عن كثب على واقع الحال في ظل "دكتاتورية البروليتاريا". لماذا لم أنتبه في ذلك الوقت لهذا الخطأ الفادح؟ وهل يمكن أن يتخذ للرء موقفا معاديا للحرية ويعلن في نفس الوقت حبه لها؟

3

الحرية تعني قبل كل شئ حرية الإرادة، التي تمكن للرء بأن يتحكم بحياته بشكل مستقل. وذلك بعيدا عن كافة أشكال القدرية، وانطلاقا من تحكيم للقاييس العقلية على كافة شؤون الحياة. هذا هو التعريف القاموسي البسط لمفهوم الحرية، بمعناها للعاصر الذي لا يجعلها مقتصرة على فئة معينة، كما كان الحال في اليونان القديمة، أو في ظل سلطة النبلاء والإقطاعيين في القرون الوسطى. لقد تبلور مفهوم الحرية أساسا في عصر النهضة الأوربية في القرن السادس عشر للبلادي. فبعد مراحل عديدة من النكسات والدمار ومحاكم التفتيش جاء الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (1650-1596) بمقولته للشهورة "كوجيتو أيرجو سوم": انا افكر فأنا موجود. بهذه العبارة جرى وضع الحجر الأساس لتطور الحداثة في أوربا، ومن هنا بدأت الرحلة الفكرية التي توجها الفيلسوف الألماني أمانويل كانت (1724-1804) بـ "فلسفة التنوير" التي مازالت حتى يومنا هذا تشكل محورا مهما في بناء الدولة الأوربية الحديثة، والخطاب الفلسفي في أوربا بما فيه الخطاب العارض للتنوير، للتجلي في الطروحات الفكرية لما بعد البنيوية، لدى ميشيل فوكو وغيره من كبار الفلاسفة الفرنسيين في القرن الماضي. ويشكل مفهوم الحرية عنصرا أساسيا لهذه الفلسفة. يقول كانت: "التنوير هو تحرر الإنسان من القصور، الذي يتحمل هو مسؤوليته. والقصور هو العجز عن إستخدام العقل دون الإعتماد على الخارج. الإنسان هو السؤول عن هذا القصور الذي لم يأت نتيجة لنقص في القدرات العقلية، وإنما نتيجة لعدم توفر الشجاعة الكافية لإستخدام العقل، دون الإتكال على توجيهات الآخرين".

بهذا أصبح كانت مؤسسا لمفهوم الحرية الحديث، الذي تعتمده الدولة للعاصرة والذي يصب، في النتيجة أو يجد تعبيره السياسي، في الديمقراطية. في القابل ارتبط مفهوم كانت للحرية بنظام أخلاقي متكامل يضعها في شرط إجتماعي ومعرفي كي لا تقع في مأزق "العشوائية".

4

جاءت الحرية الى العراق على يد القوات الأمريكية وحلفائها، وذلك بعد أن أصبح اليأس هو السائد، يرافقه الخوف الذي استولى على أرواح العراقيين، وحجب عنها ضوء الشمس حتى ضمرت وأصابها العطب. وهكذا وجد العراقيون أنفسهم وسط بحر من التحولات السريعة، شملت كافة جوانب الحياة العامة والخاصة، ووضعتهم في موضع القرار، بعد أن قضوا ثلاثين عاما تحت ظل أقسى الأنظمة الدكتاتورية للتخلفة محرومين منه. ربما كان هذا هو مصدر الفوضى "الخلاقة" التي يعيشها الشارع العراقي حاليا، والتي تحاول بعض الأطراف الدينية للتطرفة إستغلالها لتفرض على العراق نظاما قمعيا آخر، تغطيه جبة "الإمام" على غرار النظام الإيراني: نظام معاد للثقافة والحرية يقوم على رقاب للثقفين والأقليات العرقية والدينية.

في ظل هذه الأوضاع يبدو أن الخيار الوحيد للتبقي للمثقف العراقي هو العمل - في إطار إمكانياته للحدودة - على كشف السرطان الذي يريد أن يلتهم أحلامنا، قبل أن تجد طريقها الى النور، عن طريق بناء عراق ديمقراطي لا يشهر فيه أيا كان سيفه على رقاب العباد، لمجرد إختلافهم معه في الرأي أو في الانتماء.

المرحلة العراقية وشرط الحرية

ياسين النصير

علينا ابتداء أن نفكر بطريقة منهجية بصدد التعامل مع أي مفهوم قديم - جديد مثل الحرية عندما نناقشه الآن، وهو أن نضع توصيفا دقيقا لما يمر به العراق حاليا أولاً، ثم نضع توصيفا آخر للمفاهيم التي نتعامل معها ثانيا. فالحرية التي نريدها هي حرية مشروطة بالجغرافية العراقية. فأنا أرى مثلا أن الحرية في أميركا أو الدول الغربية هي غيرها في آسيا وفي منطقة الشرط الأوسط، والخلل في الرؤية لا يتأتى من الكلمة نفسها، إنما من الأرضية التي تقوم عليه أثناء للمارسة.

فالمرحلة الحالية للعراق فرضتها اشتراطات داخلية ودولية كنتيجة لأسباب ما عادت مجهولة على الجميع. وقد بدا فيها وبسرعة تطبيق مفاهيم جديدة رغم أنها قيد التجريب، كالديمقراطية والفدرالية والحرية وما إلى ذلك. ولذا فلا بد من توصيف جديد للمرحلة يأخذ بين الاعتبار ما يمر العراق به حاليا كي نكون قريبين من للمارسة التي ننشدها كمثقفين.. لذا يمكن تسمية الحال التي يمر العراق بها - وهي تسمية قابلة للحوار - بـ " للرحلة العراقية " وهي مرحلة لا يمر العراق بها لوحده، بل تمر بها في بداية القرن الحادي والعشرين بلدان ومفهومات وسياسات ومناطق عالمية كثيرة، إن لم نقل أنها بداية لتغيير شامل في العالم الثالث. ومن يتتبع التغيرات العالمية السابقة يجدها حدثت بعد مفاصل كونية كبيرة مثل: اكتشاف أميركا، والثورة الفرنسية، والثورة البلشفية. وأول توصيف "للمرحلة العراقية" أنها لا تشبه للراحل التي مرت بها البلدان الأخرى مثل ألمانيا أو اليابان بعد الحرب العالمية الثانية، ولا مثل مرحلة الأنظمة الوطنية العربية ما بعد الكونيالي للعراق. ولفهم ما يمكن أن نمارسه كمثقفين لمفردات التحديث التي نريدها "للمرحلة العراقية" ومن بينها مفردة" الحرية" موضوع الحوار، بحاجة إلى عقد ندوة متخصصة لبحث أبعاد" للرحلة العراقية" التي نعني، كي يصبح الحديث عن مفردات مثل: الحرية، التنظيم، العدالة، القانون، الدستور، الثقافة، الديمقراطية، الكونفدرالية ...الخ مرتبطا بما تفرضه هذه للرحلة الدقيقة من تصورات ثقافية جديدة. ففي مثل هذه للراحل من تحول المجتمعات النامية من الدكتاتورية إلى مرحلة الانتقال للديمقراطية تبدو للفهومات والصطلحات القديمة، والحرية من بينها، غير قادرة على استيعاب التحولات الجديدة وإن تمكنت من إعطاء صورة تقريبية عما يريده للثقفون والسياسيون منها. ومن هنا يعول سؤال " الحرية" على للثقفين العراقيين بوصفهم الأكثر تحسسا وممارسة للحرية ومن ثم لأحداث تغيير في للفهوم نفسه وجعله يتلاءم وسياق " للرحلة العراقية". وكنا قد نبهنا مرارا إلى أن للفاهيم السابقة، مثل: الواقع، الحرية، الديمقراطية، الاشتراكية، القومية، الجغرافية... الخ وبعد أن مرت عليها عجلات الحروب الخارجية وسياسة القمع الداخلية، لم تعد قادرة على استيعاب ما تطرحه للرحلة اللاحقة في العراق، سواء وردت تصورات عن هذه الرحلة في خطاب للعارضة أم في خطاب السلطة. ففي الخطاب السياسي السابق للسلطة الدكتاتورية تحول خطاب الحرية إلى خطاب فنوي إيديولوجي عسكري ضيق وقمعي، بينما بقي في أدبيات الخطاب السياسي العام للمعارضة كما هو لم تجر عليه أية تغييرات جذرية بعد رغم تحولهم إلى الداخل العراقي ومعايشة اليومي فيه.. أما خطاب الحرية في شارع اليوم، خارج ثقافة السلطة السابقة ومتجاوز لثقافة للعارضة، بدا وكأنه ثورة بحد ذاته، ونخشى أن يكون الإحساس به لدى الناس، أعلى بكثير من الإحساس به لدى القوى السياسية للعارضة وبرامجها الجديدة، فهو يلتصق بالطالب اليومية ويرفع لافتة مجردة من لحزبية. عندئذ سيأخذ الشارع زمام للبادرة وعندئذ لن تنفع معه أية طروحات نظرية أو تصورات سابقة عن الحرية، خاصة إذا عرفنا أن توجهات شارع اليوم ذات هيمنة دينية في أغلب الأحيان وهو خطاب أحادي رغم جماهيريته العلنية وهو ما يؤشر سلبا على مسيرة المجتمع ويمنع أي تجديد للمفاهيم الحديثة ومن بينها الحرية والتنظيم والعدالة وقد يمارس سياسة القصاص إن لم نقل القمع مرة أخرى وبشراسة لدور للثقفين. " فالمرحلة العراقية "بحاجة إلى توصيف نظري وعملي كي لا تبدو للفردات الحديثة أثناء التطبيق الديمقراطي اللاحق مغايرة لما نريده للعراق. وأعود كما لو كنت أبتدئ من جديد، فأقول: إن الحرية ليست مفهوما هلاميا لا يمكن وصفه أو تحديده، وأنها من نوافل الأمور التي تتعارض مع النظام بل وتدعو إلى هدمه أو تغييره لارتباطها بمفهوم الثورة والتمرد والاستقلالية، أو أنها من الكبائر في عرف البعض التي تخالف الدين والعتقد والتنظيم وبالتالي فهي فردية والفردية مخالفة للجماعة، علينا أن ننتبه إلى أن خطابنا الجديد أيضا " للرحلة العراقية" الجديدة. الحرية مفهوم جدلي، فبقدر ما هو جماعي، ثمة أطار فردي تتحرك فيه، وبقدر ما توحي بالحداثة، تكمن فيها جرثومة موتها أيضاً. وعلينا كمثقفين أن ندرك أننا لا نسير وراء الكلمة بمعزل عن "للرحلة". فالحرية لا تفسر إلا ضمن منطقها الجدلي العام وهو: حركة المجتمع العراقي ودور الأنتجلستيا العراقية. أن ما يعوزنا كمثقفين هو التجربة، علينا أن نزج بأنفسنا بالقوة أحيانا في التمسك بخوض تجربة الثقافة - للمارسة، لا الثقافة الوجلة الخطاب. وعلى السلطات الجديدة أن تعي إن دور للثقفين كبير كونهم الضمير الذي يحرك الشارع في لحظات حاسمة من التحولات التاريخية. كل هذه القيود دارها أمامي وأنا أخط هذه الكلمات وستكون أكثر تسلطا إذا جاءت على لسان قوى معارضة ناضلت لسنوات طويلة ضد الدكتاتورية والتسلط وقمع الحريات. وستكون للسألة أكثر شراسة إذا أجاء الدستور القادم للعراق ولم يحمل من مفاهيم الحرية ما يسند وضعنا كمثقفين لنا دورنا في العراق للستقبلي. فالحالة العراقية محملة بالنقيضين. وأسوق حادثة بسيطة حدثت في مؤتمر مدريد في 24 أبريل 2003 لقوى للعارضة العراقية عندما رفضت كل الأحزاب للشاركة في وضع مثقف واحد، بوصفه مثقفاً، ضمن لجنة التنسيق مؤلفة من قوى للعارضة والسلطات الأسبانية لإعادة أعمار العراق، رغم إشادة رئيس وزراء أسبانيا بدور للثقفين العراقيين للشاركين في للؤتمر. لأن خطاب للثقف العراقي عن الحرية والديمقراطية تعني دائما التجديد في الخطاب السياسي فقط، إنما بمجمل التغيرات التي تتطلبها "الرحلة العراقية". وكنا نعتقد من خلال للشاركة مع وفود سياسية أن نحقق شيئا من ذلك، ولكن كما يبدو كنا نغني خارج السرب. والسؤال الذي طرح يوم ذاك: هل أنا قادر على فرز ذاتي خارج الإيديولوجيا التي أؤمن بها؟ أشك في ذلك. فعندما ترتبط الحرية بالحداثة يكون الارتباط سعيا إلى التنظيم للنهجي، وعندما تربطها الحرية بالذات تكون سعياً إلى عمل العقل الثقافي، فالحرية ليست مفردة مجردة بل هي ممارسة تنظيمية - ذاتية دون أن يشرف عليها أحد كما يشير إلى ذلك الفيلسوف كانط.. ولأن الكتابة وجه من وجوه الحرية عليها أن لا تلتفت إلى الخلف أو الأمام، ولا إلى فوق أو تحت، ولا إلى اليمين أو الشمال. عندئذ لا لن تجد من يرفضها.. أن ممارستي كمثقف في "الرحلة العراقية" الحالية هي شرط وجودي، سواء كنت مفردا أمارس فعل الكتابة أم صوتا يعلن عن سياق جديد للحرية. وإلا عدنا مرة أخرى لاشتراطات تفرض على العقل الفردي والتنظيم الجماعي. نحن في مشكلة حقيقية، وهي بين أن تنتمي لذاتك ولثقافتك وتؤكد ما تربيت عليه سابقا ضمن الإيديولوجيا التي أمنت بها، وبين أن تمارس نشاطا حرا تفرضه "الرحلة العراقية" بعيدا عن الانتماء السابق. بين أن تلغي موروثا من مخلفات الدكتاتورية يلتصق بجلدك يوميا وما يزال، وبين أن تمارس حريتك كما يمارسها الشارع العراقي اليوم، الذي تتجاور فيه جزمة الجندي الأمريكي ونعال العراقي البسيط، فالفوضى كامنة في الحالين. ولكن أليس من العبث إن نطالب الآن بالحرية الكاملة، وبلدنا يعاني من مشكلات بنيوية حقيقية؟ فقد تصبح مثل هذه للطالبة هوس مثقفين؟. ولكن أليس من العبث أيضاً إن نتجاهل ونترك ممارستها للإيديولوجيات التي أثقلتنا بمفاهيمها القديمة وبالتالي يمكنها أن تحرف مسيرة العراق لصالح أيديولوجيتها السياسية الضيقة؟. في كلتا الحالين تخلينا عن دورنا كمثقفين. علينا أن نفهم اشتراطات الحرية نفسها، فالحرية كلمة مادية وليست لغة في قواميس لم تفتح صفحاتها، الحرية فعل يومي يمارسه العراقيون كل باتجاهه الخاص. عندما نعي ذلك نبدأ بالتفكير بأي الفردات يسير العراق. فقد لا تكون "الحرية" الفردة الأولى التي نتكلم عنها في هذه للرحلة وقد تكون ولكن ليس بما أقوله أو يقوله غيري علينا أن ننظم جهدنا التنظيري هذا وفق سياقات عملية.. لذا علي أن أضم جهدي لجهد البنائيين العراقيين الجدد ومن مختلف الفصائل قبل كل شيء، ثم أنظم حريتي ولا أقول غير "أنظم" لتكون معيار التقدم. فالحرية تتطلب تنظيما عاليا ليس من قبل للثقفين كأفراد، بل من قبل للجموعات للنظمة والسلطات الجديدة. ولذا لابد من وضعي كمثقف قبل كل شيء في دائرة أشمل لتنظيم الجتمع. أعني دائرة: الحرية - التنظيم - للمارسة. وبدون هذه للمارسة العملية لنا لن نستطيع تخطي طروحات الحرية القيدة السابقة. فهل يترك لنا السياسيون فرصة أن نمارس دورنا بعيدين عن قيودهم؟